العتابى

نحن اليوم تلقاء شاعر من أكبر شعراء القرن الثانى وأرفعهم مكانة وأظهرهم شخصية وأبلغهم أثراً فى الحياة الأدبية ، و إن كان يختلف فى كثير عن الجمهور الأعظم منهم . فهو شاعر عربى صميم ، من أسرة عربية عريقة فى تمثيل الخصائص العربية وفى قول الشعر معا . وقد نشأ وتربى وتكونت شاعريته واستقامت له طريقته فى قول الشعر وصلب عوده فيه فى بيئة عربية أدنى الى البداوة ، بعيداً عن تلك البيئات المعهودة فى البصرة والكوفة وبغداد . ثم هو كان مع هذه النشأة البدوية ، وهذا البعد عن تلك البيئات التى كانت تمد شعراء ذلك العصر بمقومات أدبهم ، وتدفع بهم قدما نحو التجديد فى شعرهم ، شاعرا أدنى الى التجديد منه الى التقليد ، وأقرب الى مسايرة روح العصر فى اصطناع أساليب التعبير الفنى والفعلى . فهو إمام من أئمة البديع ، بالمعنى الذى كان يطلق عليه فى القرن الثانى والثالث ، وأستاذ من أساتذة الفن الشعرى : ينسج الشعراء على منواله ، و يسلكون سبيله ، و يجدون فى طريقته وأسلوب صياغته ومذهبه فى التوفيق بين الديباجة العربية والنزعة التجديدية ما يفتنهم و يقف بهم عليه و يغريهم بتتبعه وتعرف منزعه . ثم هو بعد ذلك كله لم يكن يقف عند الشعر فى التعبير عن تلك النفس الفنية التى يحملها بين جنبيه ؛ فقد دفعت به روح العصر الى ما وراء تلك الحدود التى كان معاصروه من الشعراء ما يزالون محصورين فيها ، لا يكادون يتجاوزونها ، فجعل يصطنع النثر فى التعبير الفنى كما كان يصطنع الشعر ، و كان يصطنع النثر فى صورتيه ، فكان خطيباً مذكوراً فى الخطباء الظاهرين ، كما كان كاتبا تعتبر رسائله من النماذج البليغة الممتازة ، دقة فى المعنى واحتفاظا بالروح العربية وصفاتها المميزة للأسلوب العربى كما كان يتصور فى ذلك العصر . ثم كان مع هذا كله معدودا من أئمة النقد الفنى القائم على الذوق والدرس فى تلك الفترة ،

يلتمس العلماء رأيه بين ذلك الخليط من الآراء الصادرة من هنا وهنا ، ويقدرونه ويعرفون خطره ، ويستشهدون به فى موضع الاستشهاد

وإذن فقد كان العتابى مثالا رائعاً من هذه الشخصيات التى نبغت فى القرن الثانى ، واستطاعت أن تتمثل العوامل المختلفة التى تجمعت فى ذلك العصر ؛ إذ وحدت هذه العوامل فيهم القوى التى تستطيع أن تبرز بها وتظهر فيها ، حتى تنتهى إلى غايتها المقدورة فى تكوين العقل الاسلامى والحضارة العربية . وكان أحد أولئك الرواد الذين تمتاز بهم هذه المرحلة الانتقالية البعيدة الخطر فى تاريخنا الأدبى والعقلى جميعاً ، والذين اضطلعوا بشق السبل التى تهيئ لذلك التطور أن يحقق مظاهره المختلفة . ومع هذه المنزلة المتعددة النواحى لم يكد يظفر بشئ مما ينبغى لمثله من تجلية شخصيته وتبين أثره ، إلا هذه الآثارات القليلة الضئيلة المقتضبة ، تشير إليه ثم تقف ، وتنبه تنبيها خفيفاً عابراً إلى خطورة مكانه فى تاريخنا الأدبى ثم تمضى عنه ، حتى ذهب الرجل معموراً أو كالمغمور . لا يكاد احد من رجال الأدب المعاصرين يعنى به أو يقف عنده ، بالرغم مما قدمنا

وسنحاول فى هذا الفصل أن نقدم صورة لحياته ، قدر ما تأذن لنا مصادرنا القليلة المقتضبة ، وآثاره النزرة المشتتة المضطربة ، ثم قدر ما يحتمل مثل هذا الفصل

والعتابى شاعر جزرى الأسرة والمولد والمربى ، ولد فى الجزيره ونشا بها واستكمل مقومات شخصيته فيها . والجزيرة إذا أطلقت فانما يعنى بها جزيرة أقور ، كما كان يسميها جغرافيو العرب المتقدمون ، أو ميزوبوتاميا كما كان يسميها الرومان ، ويعنون بها الجزء الأعلى من وادى دجلة والفرات ، بين العراق والشام وبلاد الروم وأرمينية وأذربيجان .

وليس بنا فى هذا الفصل أن نعرض لخصائصها الاقليمية وما يتبع ذلك من العوامل المختلفة التى كونت لها شخصيتها الخاصة بها ، وطبعتها بذلك الطابع الأصيل المسيطر عليها ، وما يصدر عنها من نزعات كان لها — ولا ريب — أثرها فى تكوين آثارها الفنية وتوجيهها ؛ فذلك — على ضرورته — مما لا يحتمله هذا الفصل ، إذ كان من أشد الدراسات تعقيداً وأكثرها تشعباً وأبعدها

غاية . ثم هو من أوثق الدراسات صلة بتاريخنا الأدبى ، وأجدرها أن يفرغ بعض الباحثين له ، ويقتسموا أطرافه ؛ إذ كانت هذه المنطقة من أقدم المناطق التى هاجر إليها العرب واتخذوها موطناً لهم ، فتأثروا بها وتأثرت بهم . فما لا يكاد يحتمل الريب أنه كان لهؤلاء العرب أثر غير قليل فى بعض وجوه حياتها السياسية والاجتماعيه ، كما استطاعوا منذ ذلك العهد أن يكون لهم فيها أدبهم العربى الخالص يصور ألوان حياتهم وصنوف مشاعرهم وما كان يشجر بينهم ، ثم ما كان يثور بينهم وبين أصحاب السلطان من محادة ومخاصمة لا تلبث حتى تغمر الجو مظاهرها المادية والأدبية معاً ، على النحو الذى نستطيع أن نرى أطرافاً منه فيما بين أيدينا من بعض الشعر والخبر .

واذا كان النشاط الأدبى مظهراً لا يكاد يتخلف من أقوى مظاهر الخصومات أو النشاط الحربى فى مثل تلك البيئات ، فاننا نستطيع أن نعرف إلى أى حد بلغ هذا النشاط فى الجزيرة إذا عرفنا مبلغ ما كانت تمتاز به من حياة العرب فيها بعد الاسلام من نشاط حربى لا يفتر ، وثورة على السلطان دائمة متصلة . ولعل ذلك انما كان استمراراً لما كان يمتاز به هذا الاقليم قبل الاسلام من هذه الناحية ، ثم لهذه الصفات العربية البدوية المتأبية على النظم والقيود . وقد عاش العرب فى الجزيرة محتفظين بالطابع البدوى لهم حريصين عليه ، بالرغم من مظاهر الحضارة العريقة فيها ، حتى أمكن أن يقال مثلا عن أعشى تغلب — كما يحكى صاحب الأغانى — أنه « كان من ساكنى الشام إذا حضر ، فاذا بدا نزل فى ديار قومه بالموصل » . وكأنما وجدت قبائل العرب فى ظروف الجزيرة قبل الاسلام ما يغذى فيهم نزعاتهم البدوية ، ويذكى فيهم الرغبة فى القتال ؛ إذ كان موقعها بين الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومانية مما جعلها موضعاً للمنافسة بينهما ، وميداناً من أبرز ميادين النشاط العسكرى تظهر فيه الخصومة بينهما حادة دائبة عنيفة .

فكما كانت الجزيرة مركزاً من أهم مراكز النشاط الحربى قبل الاسلام فيما كان بين الفرس والروم ، كذلك كان لها هذا الطابع بعد الاسلام . ولعله لا يغيب عنا أن سهول صفّين التى دارت الحرب فيها بين على ومعاوية إنما تقع محلى حاشيتها بينها وبين الشام ، وأنه قبل أن يلتقى الفريقان فى تلك المعركة بصفين كانت المعركة ناشبة بين أنصار علىّ وأنصار معاوية فى قلب

الجزيرة نفسها ، فى مرج مرينا بين الرقة وحران . كذلك كانت تعتبر من أنشط الميادين التى تجلت فيها الخصومة على أشدها وفى أعنف صورها بين القيسية واليمانية ، ثم بين المضرية والربعية ، فى أيام فتنة ابن الزبير . وما هذه المواقع التى تذكر بها وقائع الحرب بين الفريقين وتنسب إليها ، كما كسين والثرثار والحشاك والخضر والبليخ والسكير والكحيل المبارك وقرقيسيا ، إلا أسماء أمكنة تقع فى شتى أنحاء الجزيرة حيث نشبت هذه المعارك التى كان لها مظهرها الأدبى فى شعر شعراء هذه الفترة من هؤلاء وهؤلاء ، كالأخطل والقطامى وعمرو بن الاهتم وعمير بن الحباب .

ويطول بنا القول لو أننا تتبعنا تاريخ هذا النشاط الحربى ومظاهره فى الجزيرة . ولكنا لا نملك إغفال الاشارة إلى مبلغ ما ساهمت به هذه المنطقة فى تلك الحروب والثورات التى جعل الخوارج يشنونها على الدولة ، فى عهد بنى أمية وعهد بنى العباس ، ونحن نعرف بعدُ مبلغ النشاط الأدبى الذى كانت تثيره هذه الحروب والثورات خاصة . وما هذه الثورات التى كان يقودها سعيد ابن بهدل والضحاك بن قيس وشيبان بن عبد العزيز اليشكرى والمليد بن حرملة والوليد بن طريف وخراشة الشيبانى إلا ثورات جزرية ، نشبت فى الجزيرة وقامت بأهلها . وقد ظلت متصلة لا تخمد واحدة حتى تشتعل أخرى ، ثم لا تلبث حتى يمتد أوارها إلى ما وراءها . ولا ريب أن لهذا دلالته القوية على ما قدمنا الاشارة إليه من احتفاظ العرب الذين استوطنوا الجزيرة بخصائصهم البدوية .

فى هذه البيئة البدوية ، ومن بين هؤلاء القوم ، خرج شاعرنا العتابى كلثوم بن عمرو ، من أسرة يتصل نسبها بعمرو بن كلثوم صاحب العلقة المشهورة ، كما تتصل إقامتها فى الجزيرة إلى ما قبل ذلك العهد الذى كان يعيش فيه ذلك الشاعر الجاهلى الكبير .

ولم يصل إلينا شئ عن نشأة العتابى الأولى نستطيع أن نتمثله به ، فنعرف على أى شئ تفتحت مشاعره ، وبأى أنواع الثقافات أخذ نفسه أو أخذه ذووه أو وجهته الملابسات والظروف ؛ فذلك ما لا قبل لنا بمعرفته معرفة تبعث على الطمأنينة العلمية . لقد كان مولده ونشأته فى تلك المنطقة التى تشبه أن تكون

منعزلة ، والبعيدة عن مركز النشاط العلمى والادبى ، مما اضاف عاملا جديداً من عوامل الغموض الذى يحيط بنشأة أمثاله . على أنه قد بقى لدينا خبر من أخبار حداثته لعلنا نستطيع أن نتشبث به ، ونرى فيه ما يدلنا على الاتجاه الغالب عليه فى بداءته الشعرية . فقد قالوا إنه جاء بشاراً وهو حدث بعد ، فأنشده أبياتاً له وقعت من بشار — فيما يقولون — موقع الاعجاب ، وهى قوله :

أتصرف عن أمامة أم تقيم ... وعهدك بالصبا عهد قديم
أقول لمستطار القلب عفّى ... على عزماته السير العزيم
أما يكفيك أن دموع عينى ... شآبيب تفيض بها الهموم
أشيم فلا أرد الطرف إلا ... على أرجائه ماء سجوم

فها هى ذى شاعرية مبتدئة تتلمس طريقها ، وتحاول أن تثبت قدمها فى ذلك المذهب الذى اتجهت إليه وأرادت أن تصطنعه ، وهو مذهب «البديع» الذى استطاع بشار بشخصيته القوية أن يلفت إليه الأنظار ويبهرها به ، ويجذب ناشئة الشعراء إليه ، من أمثال صاحبنا هذا كلثوم بن عمرو . ففى هذه الأبيات التى تبدو عليها أمارات الفجاجة الفنية نستطيع أن نلاحظ أثراً من آثار هذه الفتنة بذلك المذهب الجديد فى صناعة الشعر ، كما نستطيع أن نعرف فيها صورة من الاتجاه الشعرى عند العتابى أول عهده بالشعر ومعالجته ، فى مثل ذلك الجناس المقصود فى قوله . « . . . عفى على عزماته السير العزيم » ، وفى مثل تلك الاستعارات المصنوعة صناعة ، وتلك الصور المجازية المتكلفة الذاهبة فى سبيل المبالغة ، كشآبيب الدموع التى تفيض بها الهموم . أو الماء السجوم على أكناف الطرف المرتد .

فقد اختار العتابى إذن سبيل أصحاب البديع منذ حداثته ، مفتونا بها ، لا يعبأ أن يعنف بنفسه فى تكوين تلك الصور الشعرية ليتحقق بذلك على الوجه الذى استطاع أن يتصوره ، وهو بعد حدث لم ينضج ولم تكتمل له وسائله الفنية . وتبدو فى هذا الخبر الذى سقناه تلمذته لبشار ، وأنه كان يعتبره صاحب ذلك المذهب وممثله ، فلم يكد يعلم أن فى إمكانه لقاءه حتى يمضى إليه يعرض عليه شعره . وبشار يرى فى ذلك الشعر اتجاهه ومذهبه ، فهو يظهر رضاه عنه وثناءه عليه وإعجابه به .

أما كيف لقى العتابى بشارا ، وأين ، ومتى ، فهذا ما لا نجد النص عليه ولا الاشارة إليه فيما بين أيدينا .

ولكنا نعلم أن بشاراً رحل إلى الجزيرة ذات مرة ، قاصداً سليمان بن هشام ابن عبد الملك ، فدخل حران حيث الأمير ، وأقام بعض الوقت . وكان ذلك — ولا ريب — فى أواخر عهد الأمويين. فهل يمكن افتراض القول بأن العتابى لقى بشاراً فى هذه المناسبة : سمع بمقدمه ، وكان صيته قد سبقه ، وكان مذهبه فى الشعر موضع فتنة كما قلنا ، فمضى إليه يعرض شعره عليه ، وقد رآها فرصة نادرة أن يجلس إلى ذلك الأستاذ وينشده ويأخذ عنه ويسمع رأيه ويرضى غروره الصبيانى ؟ ذلك فرض قريب محتمل ليس ما يمنع منه .

ومهما يكن من أمر فقد كان العتابى أحد تلاميذ تلك المدرسة الجديدة التى استطاع بشار بقوته وما أتيح لشعره من أسباب الذيوع والقدرة على التغلغل فى الأوساط المختلفة ، أن يفرضها ويختط سبيلها ويأخذ ناشئة الشعراء بها .

فهذه واحدة لا بد لنا من تقريرها ونحن نحاول تبين هذه المرحلة من حياته .

وأخرى تعرض لنا ونحن فى ذلك الصدد : لقد نشأ العتابى فى تلك البيئة التى حاولنا تصويرها ، وهى بيئة بدوية طبعت على الثورة والتمرد ، وقد شهد ولا ريب كثيراً من مظاهر ذلك التمرد ، وتفززت منه عواطفه ، وتأثرت به مشاعره آثاراً مختلفة . بل لقد كان يشهد إلى جانب ذلك الذى يدور حوله كثيراً من الصور تتراءى فى نفسه وتثير مشاعره ، مما كانت أسرته ما تزال حريصة على تناقله والاعتزاز به عن جدها الأكبر ومبعث فخرها عمرو بن كلثوم . ولكن شيئاً من شعره لا يصور لنا شيئاً من هذه المظاهر ، ولا يعبر عن مثل هذه المشاعر ، بل إن شعره الذى بين أيدينا يمثل لنا الهدوء والأناة والدعة . ومرجع ذلك أن شيئاً من شعره فى تلك الفترة الأولى من حياته لم يصل إلينا ، بتأثير بعده فى هذه الفترة عن مركز النشاط العلمى والأدبى ، فلم يظفر من الرواية بما يسجله ويكفل له شيئاً من الذيوع ، وأن ما وصل إلينا من شعره هو شعر الشيخوخة أو الكهولة ، حين اعتدلت أسبابه ، واتأدت نفسه ، وغلبت طبيعته الوادعة . واذن فهناك حلقة مفقودة فى شعر العتابى تستلزمها حتما طبيعة الأشياء ، كما تقتضينا أن نذكرها ونجعلها فى بالنا حين

نذهب نتقصى العوامل التى أتيحت لشاعر كهذا الشاعر ، وحين نتلمس تصور حياته فى هذه الفترة الغامضة المبهمة منها .

وثالثة ينبغى ألا نغفلها : ما عسى أن يكون أثر هذه الثقافات المختلفة التى كانت تتمثل فى الرها وحران ونصيبين من مدن الجزيرة ؟ أحالت نشأته البدوية دون هذا التأثر بها ، أم أن شابًّا طموحاً مثله ، متقد الذهن مشبوب العاطفة لا يمكن أن يظل بمعزل عن هذه البيئات ، وهو يعلم أن فيها غذاء لطموحه العقلى والأدبى ؟ لقد استطاعت هذه البيئات أن تبسط من قبل سلطانها شيئاً ما على هذه القبيلة التى ينتسب إليها العتابى ، والتى خرج منها شاعر كالأخطل وآخر كالقطامى ، فكان للمسيحية فيها مكان ملحوظ ومنزلة ظاهرة ، فهل يستقيم القول بأنه ظل فى معزل عنها ، بعيداً عن التأثر بها ؟

بل كيف تكونت ملكات هذا الرجل الفنية على ذلك النحو الذى جعل منه إماماً من أئمة المجددين فى العبارة الأدبية شعراً ونثراً ؟ وكيف استقامت له الروح العلمية التى أتاحت له منذ اتصل بالبيئات البغدادية ، وهو شيخ كبير علت سنه ، أن يغامر فى ألوان الحياة العلمية المتصلة بالنقد الأدبى ، إذا كان قد أمضى حياته الأولى فى تلك البيئة البدوية الساذجة بتقاليدها وروحها المحافظة دون أن يدع لتلك الثقافات العقلية سبيلها إليه ، توسع من آفاقه العقلية وتحرر مُثُله الفنية ؟ إن افتراض القول بأنه اتصل منذ عهد التكوين بتلك الثقافات ضرورة لا نكاد نجد عنها معدلا فى منطق البحث الأدبى ؛ وبذلك استطاع أن يكون له فى تاريخ الأدب ذلك الأثر الذى أجملنا القول فيه .

واذا صح لنا هذا الفرض عن العتابى الذى نشأ بعيداً عن البصرة و بغداد فجدير بذلك أن يحملنا على العدول عما ألفناه وجرينا عليه من حصر العوامل التجديدية فيهما ، ورد كل تطور أدبى إليهما . فانما ينبغى لتاريخ الأدب أن يمد النظر هنا وهنا ، ويتغلغل به فى تلك البيئات التى كانت بعيدة عن مركز الدولة ومستقر السلطان ، فصرف ذلك الأنظار عنها ، وتركها فى غمرة الاغفال والنسيان ، ثم اطرد الأمر على ذلك حتى أيامنا هذه ، لا نكاد نخرج عن هذه الدائرة ، أو نرى فى غيرها مجالا للنظر والبحث والتقصى .

لقد كانت الجزيرة مركزاً من مراكز الحياة الأدبية القوية النشيطة المتصلة منذ العصر الجاهلى ، كما كانت مركزاً من مراكز النشاط السياسى على

النحو الذى رأيناه . فأما فى أيام بنى أمية فقد سجل لها شعراؤها مكانا ممتازا ؛ إذ كانت صلتهم بالدولة فى دمشق صلة يقدرها السلطان ويحرص عليها ويغالى بها ، ونحن نعرف بعد المنزلة التى كان يتمتع بها الأخطل فى البلاط الأموى . فاذا كانت أيام بنى العباس فقد تغيرت الأمور وتبدلت الأوضاع ، فحدثت الجفوة بينها وبين الدولة ، حتى أصبحت فيما يشبه العزلة من هذه الناحية ، ومضت الحياة الأدبية فيها محدودة بحدودها ، حتى ما تكاد أصداؤها تعدوها ، ولا تكاد بغداد تشعر بها ، ولا نكاد نرى شاعراً جزريا يقصد قصدها أو يتصل بالسلطان فيها ، إلا ما كان من مثل ربيعة الرقى . وهو لم يقصد إليها ، وانما استقدمه المهدى استجابة لرغبة جواريه ، كما يقولون . وكان ربيعة هذا — فيما يقول أبو الفرج — « من المكثرين المجيدين ، وانما أخمل ذكره وأسقطه عن طبقته بعده عن العراق وتركه خدمة الخلفاء » . وهكذا كان — فيما يبدو — شأن الحياة الأدبية عامة فى الجزيرة : أخملها وغض من شأنها « البعد عن العراق وترك خدمة الخلفاء » .

وهكذا كان أيضاً الشأن فى هذه الفترة الأولى من حياة شاعرنا العتابى ونشاطه الأدبى فيها ؛ فقد مضى — بالنسبة للرواة ودارسى الأدب — مغموراً ، يغشاه الابهام المطلق ، وتحتوشه الظلمات ، فما يبدو منه إلا تلك الومضة الخاطفة التى تشير إلى صلته ببشار ومحاولته اصطناع مذهبه فى صناعة الشعر . ثم تظل هذه الظلمات تحيط به ، وتضرب من دونه نطاقاً غفلا ، حتى عهد الرشيد ، حين يتجه هذا الخليفة بعنايته إلى هذه المنطقة ، ويتخذ من الرقة داراً له ، يكثر من النزول فيها والالمام بها ، وحينئذ تنجاب هذه الظلمات بعض الشئ عن العتابى ، فنراه ماثلا أمامنا ، متصلا برجال الدولة ، وبالبيئات البغدادية المختلفة .

كان بدء ذلك فى أثناء ولاية عبد الملك بن صالح العباسى على الجزيرة ، وفى أعقاب فتنة من هذه الفتن التى كانت ما تلبث حتى تشتعل هنالك ، إما ثورة على الدولة القائمة تصدر عن نزعات دينية أو جنسية ، وإما ثورة داخلية بين هذه القبيلة وتلك استجابة لروح العصبية القبلية . وقد أخذت الدولة فى قمع هذه الثورة التى كان قوامها رجال ربيعة ، قبيلة العتابى وعشيرته ، فنكلت

بها وجردت السيف فيها وأنهكتها عقوبة واستقصاء فيها . والعتابى الشيخ يحس الوجيعة لما يشهد من مصارع قومه ، فلا يجد إلا أن يتقدم إلى الأمير بقصيدة يعتذر فيها لهم ، ويستوهبه العفو عنهم ، وهى قصيدة ما تزال قطع منها بين أيدينا تصور العاطفة المتزنة ، كما تصور صناعة العتابى الشعرية فى هذه المرحلة من حياته ، من الديباجة المصقولة والسرد المحكم والصور الفنية المجودة . وقد بلغ العتابى بهذه القصيدة الغاية التى كان يرجوها ، فلم يلبث الأمير أن أمر قائده أبا عصمة أن يكف سيفه .

« فلما قدم الأمير الرافقة أنشده عبد الملك القصيدة ، فقال : لمن هذه ؟ فقال : لرجل من بنى عتاب يقال له : كلثوم بن عمرو . فقال : وما يمنعه أن يكون ببابنا ؟ فأمر باشخاصه من رأس عين . فوافى الرشيد ، وعليه قميص غليظ وفروة وخف ، وعلى كتفيه ملحفة جافية، بغير سراويل » كما يقول أبو الفرج فى سياق الكلام عن هذه القصيدة .

وهكذا خرج العتابى من بيئته ، فلم يكد يتصل بالسلطان حتى أخذ سبيله إلى بغداد ، فترك البادية إلى الحاضرة ، وترك حياة القبيلة إلى ذلك المجتمع الزخار بأنواع الناس وأصناف اللباس ، كما يقال . فماذا كان من شأنه فى هذه البيئة الجديدة ؟ لم يكن العتابى رجلا بدويا خالص البداوة من جميع جوانبه وانما كان مزاجاً من هذه وتلك : كان بدويا فى مظهره وأسلوب حياته وبساطة مشاعره ، ثم كان بعد ذلك يمثل الرجل الحضرى المترف بعقله وأسلوب تفكيره ومنهجه فى الصناعة الفنية ؛ و بذلك استطاع أن يتصل بالبيئات الرفيعة المختلفة فى بغداد ، لا باعتباره شاعراً بارز الشخصية من شعراء الطبقة الأولى فحسب ، وهو الاعتبار الذى وصل بينه و بين السلطان ، بل باعتباره — إلى جانب ذلك — عالماً من علماء الشعر وأصحاب الرأى فيه ، وباعتباره كاتباً جيد الكتابة استطاع أن يبهر الناس بأسلوبه فيها ، وباعتباره خطيباً يعرف كيف يدير القول ويصيب المفصل ويفتن الألباب ويبلغ غاية الاقناع بقوة بيانه وجودة عبارته ووضوح حجته . فقد اجتمع له إذن من وسائل التبريز فى تلك البيئات ما لم يجتمع لسواه ، ونزل من أصحابها منزلة كبيرة ، حتى لقد كان يحيى بن خالد البرمكى يقول لولده : « إن قدرتم أن تكتبوا أنفاس كلثوم بن عمرو فضلا عن رسائله وشعره . . . فلن تروا أبداً مثله » . وهكذا لم يكد العتابى يتصل

ببغداد حتى هيأت له مواهبه أن يحتل فى المجتمع البغدادى المثقف هذه المنزلة الرفيعة ، وأن يتبوأ فى أندية بغداد الأدبية التى كانت تتمثل فى بيوت السراة وأصحاب السلطان ذلك المكان الظاهر . وقد أحاطه البرامكة برعايتهم وأولوه حمايتهم ، وأشعروه روح الطمأنينة فى ذلك المجتمع الجديد .

ومن ذلك يبدو أن العتابى أصاب فى هذه البيئة الجديدة نجاحاً جديداً لعله فوق ما كان يقدر . ولكن هذا النجاح إنما أصابه العتابى الشاعر الكاتب العالم الخطيب ، فأما العتابى الرجل ، الذى كانت الروح البدوية فى أعماقه ، مسيطرة عليه وموجهة مشاعره ، فكان شيئاً مختلفاً ؛ فما أصابه ذلك نجاحاً وظهوراً أصابه هذا إخفاقاً وتخلفاً . ذلك أن الحياة الاجتماعية فى بغداد كانت معقدة أشد التعقيد ، محكومة بطائفة من الاعتبارات أدنى إلى السخف ، وكانت صلات الناس بعضهم ببعض لا تقوم على المودة الخالصة والمعانى النفسية قدر ما تقوم على التملق والمخادعة والمصانعة والتماس المنفعة العاجلة . وكانت أسباب الرجل فى هذه الحياة مشتقة من طبيعة هذه الحياة القائمة على التكلف والتصنع ، لا من صفاته النفسية أو مواهبه العقلية أو الفنية حين يكون المجال الذى يقوم فيه ويؤدى عمله مجالا فنيا أو عقليا . فأنّى لهذه المشاعر البسيطة والخلائق الصريحة المستقيمة أن تعرف سبيلها فى تلك المسالك الملتوية ؟ ولو أن العتابى جاء بغداد قبل أن يشيخ ويصلب عوده على الوضع الذى نشأته عليه البادية فلعله كان يملك لنفسه شيئاً من الملاءمة بينها وبين تلك البيئة الاجتماعية المعقدة ، ولكن ذلك شئ لا يمكن استرجاعه . فلابد إذن مما صارت أموره إليه .

وهكذا كان صاحبنا يحس أنه يحيا فى بغداد حياة مقسمة ، فهو ناجح مخفق ، وهو متقدم متخلف ، وهو موضع التقدير وموضع الغبن والتأخير . ولعل هذه المفارقات كانت من أول ما جعل يؤزّه ويملأ حياته عناءً وجهداً ، وقد جعلته يقارن بينه وبين غيره فيرى الدنيا مقبلة على هذا وذاك مدبرة عنه دون أن يكون لهذا الاقبال والادبار — فيما يحسب — سبب يرجع إلى طبيعة الأشياء .

قالوا إنه مر بأبى نواس ذات مرة ، وقد اجتمع إليه طائفة من الناس ، وهو ينشدهم قصيدته فى مدح الخصيب بن عبد الحميد :

ذكر الكرخ نازح الأوطان فبكى صبوة ولات أوان

فلما رآه أبو نواس قام إليه وسأله الجلوس ، فأبى وقال : أين أنا منك وأنت القائل ، وقد أنصفك الزمان :

قد علقنا من الخصيب حبالاً أمنتنا طوارق الحدثان

وأنا القائل وقد جار علىّ وأساء إلىّ :

لفظتنى البلاد وانطوت الأكفاء دونى وملنى جيرانى
والتقت حلقة علىّ من الدهر فما جت بكلكل وجران
نازعتنى أحداثها نهمة النفس وهدّت خطوبها أركانى
خاشع للخطوب مفترق القلب كئيب لنائبات الزمان

لقد أبعلته المفارقة وملأت جوانب صدره ضيقاً و برماً حين نظر إلى أبى نواس فرأى البون الواسع بينه و بينه ، ثم رآه مقبلا عليه متحفيا به ، فكأنما رأى شيئاً منكرا لا تسيغه مشاعره البسيطة الساذجة .

ولم يكن نظر العتابى إلى من حوله ممن أقبلت الدنيا عليهم ، ثم مقارنة حاله بحالهم ، عن حقد منه أو ضغينة يضطغنها عليهم ، فلم يكن بالرجل شئ من هذا . فانما يحقد الرجل الصغير عند نفسه ، يستشعر الضعة فى أعماقه ، فأما العتابى فكان معتزا بنفسه ، مقدراً لكرامته مكبراً لها ، يراها أول ما ينبغى للرجل أن يحرص عليه و يغالى به . ومن ذلك هذه القطعة المأثورة عنه وقد جعلها كالوصية لأصحاب الحاجات : « إن طلبت حاجة إلى ذى سلطان فأجمل فى الطلب اليه ، و إياك والالحاح عليه . فان إلحاحك يكلم عرضك ، و يريق ماء وجهك ، فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك . ولعل الالحاح يجمع عليك إخلاق الوجه وحرمان النجاح . فانه ربما مل المطلوب إليه حتى يستخف بالطالب » . وليس هذا كلام رجل يجد الحقد سبيلا إلى نفسه ؛ فالحرص على ماء الوجه وكرامة النفس لا يتفق مع الصغار الذى هو قرين الحقد وباعثه .

لقد نشأ العتابى فى تلك البادية التى رأينا مبلغ إبائها واعتزازها وما تفيضه على أبنائها من مغالاة بالكرامة وتقدير للشخصية واعتداد بالذات ، وفى أسرة ما تزال تتمجد بذلك التاريخ الذى كتبه لها عمرو بن كلثوم ، تتوارثه

وتتدارسه وتغذى به فى بنيها ذلك الشعور بالكرامة والاعتداد بالنفس والاكبار للذات . وقد بقى فى هذه البيئة حتى أسن واكتهل ، حفيظاً على تقاليدها ، حريصاً على مظاهرها ، يكره أشد الكره أن يغفلها أو يتبدل بها ، كما تدلنا على ذلك أخباره دلالة صريحة . وقد مضى إلى بغداد بهذه الطبيعة وفى تلك السن العالية ؛ فكانت هذه المفارقات الصارخة التى رأيناها ، والتى عبر عنها بهذه العبارة الهادئة ، حين سأله أحد أصحابه ذات مرة : « ما بالك لا تقصد السلطان كما يفعل فلان وفلان ؟» فقال : «لأنى أراه يعطى واحداً لغير حسنة ولايد ، ويقتل الآخر لغير سيئة ولا ذنب » . وقد جعلت هذه المفارقات تؤلمه ، ولكنها لم تستطع أن تجعله يصوغ نفسه على غرار ما يتطلب ذلك المجتمع .

وإذا كنا نسمعه مرة يقول :

أُسجد لقرد السوء فى زمانه
وإن تلقّاك بخزوانه
لا سيما مادام فى سلطانه

فانما تلك فى حقيقة الأمر سخرية مرة بالسلطان ، وتهزؤ بذلك النظام الاجتماعى الذى يلبس الأشياء غير لبوسها ، ويضعها فى غير مواضعها .

وهكذا كانت حياة العتابى فى بغداد حياة مقسمة ، وهكذا كانت مشاعره فيها : إحساساً بالألم والوجيعة ، كما نرى فى تلك الأبيات التى أنشدها أبا نواس ، ثم سخرية من تلك الأوضاع المنكرة التى ألفها الناس واستكانوا لها فلم يعودوا يرون فيها شيئاً من النكر الذى عبر عنه فى تلك القطعة الصغيرة الساخرة ، حين قدم إلينا صورة القرد وقد انتفخ سَحْره وشمخ بأنفه واصطنع التيه والجبرية ، والناس أمامه قد خروا سجوداً له . . . ثم إحساساً باليأس وارتياحاً إليه على النحو الذى نراه فى قوله :

ألا قد نكس الدهـ ـر فأضحى حلوه مرا
وقد جربت من فيـه فلم أحمدهم طرا
فألزم نفسك اليأ س من الناس تعش حرا

ولكن الأمر لم يقف عند ذلك الحد ، ولم يستطع العتابى بالرغم من موقفه

أن يعتصم من سوءات ذلك المجتمع وشروره . فهذه الصلة الضئيلة التى اتصلها بالسلطان لم تلبث أن أثارت حوله الضغائن ، ونصبت له الدسائس . فمرة هو متهم بأنه أقحم اسم الخليفة فى بعض ما كان يمازح به إخوانه ويعبث به وإياهم ، وهو مأخوذ مرة أخرى بأنه كان « يقول بالاعتزال — كما يحكى ذلك الجهشيارى — ماتصل ذلك بالرشيد ، وكثر عليه فى أمره فأمر به بأمر عظيم » . ولا ندرى كنه ذلك « الأمر العظيم » الذى جعله الرشيد عقوبة له ، ولكنه قد حمله على كل حال على أن يهرب إلى اليمن ، ثم ظل مقيما بها حتى استنقذه يحيى بن خالد البرمكى مما كان يساوره من المخاوف فيها ، فما زال بالرشيد حتى استصدر له العفو عنه .

ولعل هذه المكرمة كانت من أكبر ما وثق بالبرامكة أسبابه ، ولو أن النكبة لم تلبث أن وقعت بهم ، فبكاهم ، ثم لم ير بعد ذلك ما يمكن أن يغريه بالبقاء فى بغداد ، فولاها ظهره ، وانطلق عائداً إلى الجزيرة . وقد جعلت مشاهد بغداد تتردد فى خياله ، وجعل يستعرض حياته فيها ، فيرى أنه لم يفد شيئاً منها ، وأنه راجع إلى وطنه أخيراً كما تركه نقيراً صفر اليد مما كان يؤمله ويمنى النفس به من المال الذى كان يريد أن يبنى به ما هدم الاقتار من مأثرته ومن خطر أسرته . ولكنه ما يلبث أن يتعزى عما فاته من ذلك بمصرع البرامكة وقد بلغوا ما بلغوا ، فيمضى وهو يردد هذه الأبيات :

تلوم على ترك الغنى باهلية ... طوى الدهر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن فى الكسى ... مقلدة أعناقهـا بالقلائد
أسرَّك أنى نلت ما نال جعفر ... من العيش أو ما نال يحيى بن خالد
وأن أسير المؤمنين أغصّنى ... مَغَصهما بالمرهفات البوارد
ذرينى تجئنى ميتتى مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان رفيعات الأمور مشوبة ... بمستودعات فى بطون الأساود

لم يكن هذا آخر عهد العتابى ببغداد ، فما تكاد تنتهى فتنة الأمين والمأمون وتستقر الأمور فيها ، ويرجع المأمون إليها ، ويفد الناس عليه من هنا وهنا ، حتى نرى العتابى ببابه ونشهده وقد تشبث بيحيى بن أكثم القاضى ، يريد

أن يذكره لديه ويستأذن له عليه ، وابن أكثم يذكر له أنه ليس حاجبًا . ولكن العتابى ما يزال به يلاحيه ، حتى ما نلبث أن نراه فى مجلس الخليفة ، وفى المجلس إسحاق بن ابرهيم الموصلى . وقد أحسن المأمون لقاءه وأكرم وفادته . ثم نراه بعد ذلك وقد انصرف مع الموصلى إلى منزله نازلا عليه .

وهنالك فى دار الموصلى جعل له مجلساً يختلف إليه أهل الأدب والمتأدبون ، يسمعون منه ويكتبون عنه ويذاكرونه فى مسائل مختلفة من مسائل الأدب والشعر . ولعل هذه المجالس والأمالى التى كانت تلقى فيها هى الأصل فى هذه الكتب التى يذكرها له ياقوت ، وهى : كتاب المنطق ، وكتاب الآداب ، وكتاب فنون الحكم ، وكتاب الخيل ، وكتاب الألفاظ ، وكتاب الأجواد ، ثم كتاب آخر لم يذكره ياقوت وإنما نجد الاشارة إليه فى الفصل الذى عقده صاحب الأغانى للكلام عن ابن سريج ، وقد أورد فيه قطعة منسوبة له فى صفة المصيب المحسن من المغنين ، وقدمها بأنه نقلها عن كتاب العتابى . وإذا كان أبو الفرج لم يسمّ هذا الكتاب فلعلنا بهذه القطعة التى نقلها عنه نملك القول بأن موضوعه كان الغناء وصفات المغنين ، ولعله كان مجموعة روايات فى هذا الموضوع أتيح له أن يسمعها فى خلال إقامته الأولى ببغداد ، حتى إذا كانت إقامته فى دار إسحاق بن ابرهيم الموصلى — وهو من نعرف فى الغناء — وجد فى ذلك ما حفزه إلى وضع هذا الكتاب وإملائه .

وكانت دار إسحاق بن ابرهيم الموصلى تعد من أكبر الأندية الأدبية فى بغداد ، وأكثرها تمثيلا لوجوه المتع الفنية والعقلية ؛ إذ كان الرجل من أكثر أهل عصره تحصيلا لثقافات العصر وتحققاً بها وتذوقاً لها : كان عالماً شاعراً أديباً ، وكان يعد رأس المغنين وإمامهم ومعلمهم ، وكان إلى جانب ذلك رجلا سريا بكل معانى السراوة فى المال والخلق ، نبيلا رحب الجانب أريحى النفس مهذب الطبع ، فكان أهل ناديه يجدون عنده حاجات نفوسهم ومطالب عقولهم ولذاذات أذواقهم . فلا جرم أحس العتابى عنده كثيراً من الروح كما أتيح له أن يعقد صلته عنده بكثير من سراة البغداديين فى هذه الفترة كأحمد بن هشام وأخيه على بن هشام وعبد الله بن طاهر .

ولكن العتابى لا يلبث — وقد تقدمت به السن — أن يحس الحنين الشديد إلى موطنه ، فيعود إلى الجزيرة يقضى فيها أيامه الأخيرة . وكان

ذلك — فيما نقدر — فى عهد ولاية عبد الله بن طاهر عليها ، فيما بين سنتى ٢٠٦ و ٢١١ . وكان عبد الله هذا يأخذ بتقاليد السراة فى عصره ، فيصطنع ألوان الترف العقلى والفنى والمادى . وكذلك وجد العتابى فى كنفه وحياطته وسماحة نفسه وحسن تقديره ما كفل له حياة راضية ، وجعله يستشعر الطمأنينة فى هذه السن العالية .

ولسنا نعرف متى قضى العتابى نحبه ، ولكنا نعلم أنه كان لا يزال ممتعاً بالحياة فى سنة ٢١١ ، وهى السنة التى وجه فيها عبد الله بن طاهر إلى مصر . فقد حكى صديقه محمد بن النضر أنه مر به ، وهو فى طريقه إلى عبد الله بن طاهر حين كان يريد مصر ، فجلس إليه وجعل يجاذبه أخبار الحياة الأدبية فى العراق و بغداد . ولكنا لا نعلم عنه شيئاً بعد ذلك ، وأكبر الظن أنه لم يعش بعد ذلك طويلا .

طه الحاجرى